مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

أُحَيْحَة بن الجُلاح الأوسيّ

الأستاذ عادل الفريجات
دمشق ـ سُورية

أُحَيْحَة بنُ الجُلاحِ شاعرٌ جاهليٌّ قديم، ينتمي إلى قبيلة الأَوْس، التي كانت تقطن مدينة يثرب مع أختها الخزرج إثر هجرتهما من اليمن بسبب خراب سد مأرب. وقد ذكرته مصادر كثيرة، وساقت له مجموعة طيّبة من الأخبار والأشعار. وما توفَّر لنا من معلومات عنه يمكننا من البحث في اسمه ونسبه، وزمانه، وحروبه التي كان منها حرب سُمير، وحرب كَعْب بن عمرو، وقصته مع قيس بن زهير بن جَذِيمة العبسي، ويجعلنا نحاول رسم صورةٍ مُبَسَّطة عن صفاته وملامحه. أمّا شعره فقد تيسَّر لنا جمع (123) بيتاً منه، من بينها مُذَهَّبته، التي أوردها له أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب، وأصمعيته، التي أدرجها الأصمعي في مختاراته المعروفة باسمه.

1 ـ اسمه ونسبه:

هو أُحَيْحَة بن الجُلاح بن الحَرِيش بن جَحْجَبَى بن كُلْفة بن عَوْف بن

عمْرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة بن الغطريف بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. ونسب الأزد هو: الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[1].

وضبط اسمَ شاعرنا صاحبُ الخزانة، فقال: «وأُحَيْحَة بضم الهمزة وبالحاءين المهملتين مُصَغَّر الأَحِيحَة[2]، وهو الغَيْظ وحزازة الغَمّ، والجُلَاح بضم الجيم وتخفيف اللام وآخره حاء مهملة، وهو في اللغة، السيل الجراف. والحَرِيش بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين وآخره شين معجمة، وهو نوع من الحيّات أرقط، و(جَحْجَبَى) بحاء مهملة ساكنة بين جيمين مفتوحتين، وبعد الموحّدة ألف مقصورة.. و(كُلْفة) بضم الكاف وسكون اللام»[3].

ويُكَنَّى أُحيحةُ أبا عمرو[4]. وقد كان عبد الملك بن مروان يعرف أُحَيْحة بهذه الكنية، وذلك في خبر ذكره النهرواني (390 هـ)، يشير إلى معارف عبد الملك من جهة، وإلى اشتهار أُحَيْحة بهذه الكنية حتى العصر الأموي من جهة أخرى[5].

ووالِدةُ عمرو بن أحيحة هي سَلْمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد النَّجّارية. وكان أحيحة قد تزوجها، فولدتْ له عمراً ومعبداً، ثم طلَّقها، فخلفه عليها هاشمُ بن عبد مناف ـ جدُّ الرّسول ﷺ الثاني، فأنجبتْ له (عبد المطلب)[6].

---

(1) انظر جمهرة أنساب العرب 332 و335 و484. وانظر في نسب أُحَيْحَة أيضاً: الأغاني: 15:37. والروض الأنف 1:162. والاستبصار 307. والإصابة 1:24. والخزانة 3:357.

(2) وفي الاشتقاق يقول ابن دريد: أُحَيْحَة من الأُحاح، والأُحاح ما يَجِدُهُ الإنسانُ في صدرِهِ من حرارة الغيظ ـ الاشتقاق 441.

(3) خزانة الأدب 3:357.

(4) انظر كُنَى الشعراء (ضمن نوادر المخطوطات) 2:294. والخزانة 3:357.

(5) انظر الجليس الصالح الكافي 1:478 ـ 479.

(6) انظر في زواج سلمى من أحيحة أولاً، ثم زواجها من هاشم ثانياً: جمهرة النسب لابن الكلبي (ط الكويت) 1:96. والمعارف 130. والاشتقاق 9. والأغاني 15:49. وجمهرة أنساب العرب 14.=

وكانت سلمى امرأة حرّة، أَمْرُها بيدها، إذا أغضبها شيء من الرجل طلّقته. وقد عُدّت من النساء المنجبات لولادتها عبد المطلب[7]. وذكرت مصادر متأخرة خبراً يعكس ترتيب زواجَيْ سلمى: من أحيحة، ثم من هاشم، بحيث صارا: من هاشم أولاً، ثم من أحيحة[8].

ونقع عند ابن قدامة المقدسي (620 هـ) على خبرين، يفيد أولهما أن أحيحة خلف هاشماً على امرأة تدعى أسماء، فولدت له عمراً ومعبداً وأنيسة؛ وهو خبر فريد؛ إذ لم يُذْكَر في أي من المصادر، التي عُدْنا إليها، أنّ أم عمرو ومعبد تدعى أسماء؛ ولكن الخبر يفيدنا ـ إن صحّ ـ بأن لأحيحة ابنةً تُدعى أنيسة.

والخبر الثاني يطلعنا على أنّ لأحيحة ولداً رابعاً يُقال له (سُهَيْلٌ). وقد نعته ابن قدامة المقدسي في كتابه (الاستبصار) بأنه جاهلي شريف، ولعل أباه أُحَيْحَة هو الذي خاطبه قائلاً:

أَلَا أبلِغْ سُهَيْلاً أنـ ـني ما عِشْتُ كافِيكا
فلا يُلهيكَ عن مالِـ ـكَ في قَوْمٍ تَرائِيكا
وشَدِّدْ طَبَقَ الحَيْزُو م إنَّ الموتَ لاقِيكا[9]

وفي (الاستبصار) أيضاً نقع على ابن خامس لأحيحة، هو عُقْبة. وقد أنجب عقبة هذا ولداً يدعى محمداً، وأنجب محمدٌ المنذرَ، وشهد المنذرُ بدراً، وقتل يوم

= والاستبصار 309. والخزانة 3:358. وفي أنساب الأشراف 1:64 ذكر البلاذري أنّ أُحَيْحة مات عن سلمى بعد أن ولدت له ولدين هما عمرو ومعبد، وقد هلكا أيضاً، ثم خطبها هاشم. وهو خبر يخالف إجماع الروايات السابقة.

(7) انظر المحبر 456 و457.

(8) انظر أنباء نجباء الأبناء 164. وأسد الغابة 4:83. والإصابة 1:24.

(9) انظر الاستبصار ص 313. وقلنا: لعلّ الأبيات لأحيحة، لأن محقق الاستبصار الأستاذ علي نويهض لم يتمكن من قراءة اسم قائلها في المخطوط، كما يذكر هو في حاشية الصفحة المذكورة. وقد تأكد لنا أخيراً أنها لأحيحة.

بئر معونة[10]. وذكر البغدادي (1093 هـ) حفيد أحيحة الثاني هذا، فقال: «والمنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة، صحابي شهد بدراً، وقتل يوم بئر معونة، كذا في الجمهرة. وعدّ عبدان في الصحابة محمد بن عقبة هذا، لكنّه نسبه إلى جدّه، فقال: محمد بن أحيحة. وقال: بلغني أنه أول من سُمِّي محمداً في الجاهلية... قال ابن الأثير: مَنْ يكون أبوه تزوَّجَ سلمى أم عبد المطلب، مع طول عمر عبد المطلب، كيف تكون له صحبة مع النبي ﷺ؟ هذا بعيد، ولعله محمد بن المنذر بن عقبة بن أحيحة الذي ذكروا أباه فيمَنْ شهد بدراً. قال ابن حجر في الإصابة: وفيه نظر، لأنهم لم يذكروا للمنذر ولداً اسمه محمد، انتهى. والصواب ما في الجمهرة. وبه يزول الإشكال»[11].

ولكننا حين نراجع الإصابة نجد ابن حجر (852 هـ) يُميِّز بين اثنين دعيا باسم أحيحة بن الجلاح، وكلاهما أبو عمرو، فيقول: «وأُحَيْحَة بن الجُلاح المشهور كان جاهلياً شريفاً في قومه مات قبل أن يولد النبي ﷺ بدهر. ومِنْ ولده، مُحمَّدُ بن عقبة بن الجلاح ـ أَحَدُ من سُمِّي محمداً في الجاهلية. ومات محمد بن عقبة في الجاهلية، وأسلم ولده المنذر بن محمد وشهد بدراً وغيرها، واستشهد في حياة النبي ﷺ ببئر معونة»[12].

وتأييداً لكون محمد بن عقبة بن أحيحة جاهلياً، نذكر أنّ ابن قدامة المقدسي قال فيه: إنه جاهلي فارس شريف، نافَرَ الزبرقان بن بدر[13].

---

(10) الاستبصار 315. وفي الاشتقاق 9 أن محمداً هو ابن لبلال بن أحيحة وليس ابناً لعقبة. ولم نقرأ في غير الاشتقاق أن لأحيحة ولداً يدعى بلالاً، وقد ولد محمداً.

(11) الخزانة 3: 357 ـ 358.

(12) الإصابة 1: 24. ومن الغريب أنّ ابن حجر يعود فيذكر محمد بن عقبة بن أحيحة بين الصحابة. انظر الإصابة 3: 508 بعد أن كان قد قال: ومات محمد في الجاهلية ـ الإصابة 1: 24. وقد صحَّحَ هذا الغَلَط صاحبُ الخزانة باعتماده رواية مؤلف الجمهرة، التي تقول: إن المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة هو الصحابي الذي أسلم وشهد بدراً، واستشهد في يوم بئر معونة، حسبما ذكر أعلاه.

(13) الاستبصار 305 و308.

2 ـ زمان أُحَيْحة:

في ما تقدّم عن أسرة أحيحة ما يشير إلى قدمه، وما لو دققنا فيه، لكشف لنا عن زمنه التقريبي. فهو أولاً زوجُ سَلْمى النجارية، التي صارت، أو كانت، زوجاً لهاشم بن عبد مناف، وفي الوقت نفسه أماً لعبد المطلب، وهما جدَّا الرسول ﷺ الأول والثاني. وقد قال ابن سلاَّم في علاقتهما بأولية الشعر العربي: «... ولم يكنْ لأوائلِ العربِ من الشِّعْرِ إلاّ الأبيات يقولها الرجلُ في حاجتِهِ، وإنَّما قُصِّدتِ القصائدُ، وطُوِّلُ الشعرُ على عهد عبدِ المطّلبِ وهاشم بن عبد مناف. وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحِمْيَر وتُبَّع»[14]. فَخَبَرُ ابن سلاّم هذا يشير إلى أنَّ تقصيدَ القصائد وتطويل الشعر كانا أيضاً في عهد أُحَيْحة، الذي كان يُعاصِر هاشم بن عبد مناف، وإن كان أحدهما في يثرب، والآخر في مكة. وعليه فإنَّ معرفتَنا بزمن هاشم تعني معرفتنا بزمن أحيحة.

ولنبدأ بتعرّف حياة عبد المطلب بن هاشم، فقد روى ابن هشام (213 أو 218 هـ) في السيرة أنه: «لما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين هلك عبد المطلب بن هاشم، وذلك بعد الفيل بثماني سنين»[15]. ومن الشائع والمعروف أنَّ عامَ الفيل هو العام الذي هاجم فيه أبرهة الحبشي، حاكم اليمن، مكَّة. ولكننا نعرف أنّ الدكتور (خالد العسلي) قارن بين ما اكتشف من نقوش في شبه الجزيرة العربية، وبين الروايات العربية عن عام الفيل، وخلص إلى أن حملة أبرهة على شمال الجزيرة، التي لم يشر إليها (برقوبيوس) إلا مرة واحدة، وَقَعَتْ، حسب النقش Ry 506، في سنة 622 سبئي، وهي تقابل السنة 547 أو 552 م. وهو تاريخ عام الفيل حسب رواية الزهري[16]. ولهذا فإن عام الفيل هو جزء من حملة أبرهة الحبشي

---

(14) طبقات فحول الشعراء 1:26.

(15) السيرة 1:169. وتاريخ الطبري 2:279.

(16) انظر مقال د. خالد العسلي: «حملة شمريهرعش على شرق الجزيرة» في مجلة العرب ـ الجزء التاسع ـ ربيع الأول 1351 هـ ـ أيار (مايو) 1971 ص 835. والعرب على حدود بيزنطة وإيران =

المُؤَرَّخة بسنة 552 م. وإذا كان عبد المطلب قد توفي بعد ثماني سنين من عام الفيل، فإنه يكون قد مات سنة 560 م. وإذا عرفنا كم سنة عاش عبد المطلب، نعرف متى وُلِدَ، ثم نقدر عمراً لأبيه هاشم، يكون هو العمر التقريبي أيضاً لشاعرنا أحيحة بن الجلاح.

وثمة إجماع على أنَّ عبد المطلب عُمِّرَ عمراً مديداً. لعلّ أقلَّه اثنتان وثمانون سنة، وأكثره مائة وأربعون سنة[17]. قال البلاذري: «قالوا: وتوفي عبد المطلب وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، ودفن بالحجون من مكة ولرسول الله ﷺ ثماني سنين، ولحمزة نحو من اثنتي عشرة سنة... ويقال: إنّ عبد المطلب مات وله ثمانٍ وثمانون سنة، وفي رواية الواقدي وغيره أن أم أيمن حدثت أن رسول الله ﷺ كان يبكي خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثماني سنين»[18].

وفي أخبار أخرى عن عُمْرِ عَبْدِ المطلب، قال البلاذري (279 هـ): إنه مائة وعشرون سنة، وعن عبد الله بن عباس: ثمان وثمانون سنة[19].

فإذا أخذْنا بالعمر الأقل لعبد المطلب، وهو اثنتان وثمانون سنة، وجَعَلْنا عام الفيل هو عام 552 م، لا 547 م، لنأمن من المبالغة والتزيُّد، يكون مولد عبد المطلب قبل عام 552 م باثنتين وثمانين سنة، أي نحو سنة 470 م. ولكي ينجب هاشم بن عبد مناف، ابنه عبد المطلب نحو سنة 470 م، لا بدّ أن يكون قد قارب العشرين عاماً على الأرجح، فهو مولود إذاً قبل عام 470 م بعقدين من السنين، أي نحو سنة 450 م. وهو التاريخ الذي نقدّر أن يكون أحيحة بن الجلاح قد ولد فيه، أو

= ص 217. وقد أصبْتُ في مصادرنا العربية رواية غير منسوبة تفيد أن قصة الفيل قبل الرسول ﷺ بسنين ـ انظر البداية والنهاية 2:175. أما رواية الزهري عن تاريخ هذا اليوم فلم أجِدْها.

(17) انظر أنساب الأشراف 1:84. والروض الأنف 1:7. وفي الكامل لابن الأثير مائة وعشرون سنة ـ الكامل 2:15. وانظر عيون الأثر 1:39 ـ 40 حيث ذكر أنَّ عبد المطلب عاش خمساً وتسعين سنة في رواية، ومائة وعشرين سنة في رواية أخرى.

(18) أنساب الأشراف 1:84.

(19) المصدر السابق 1:84.

في سنة قريبة منه، سواءٌ أكان قد سبق هاشماً إلى الزواج من سلمى النجارية، أم خَلَفَه عليها.

وإذا تذكرنا أنّ ابن حجر قد قال في أحيحة: مات قبل أنْ يُولَد النبيُّ ﷺ بدهر[20]، فإنَّ حياته تكون محصورة بين أواسط القرن الخامس وأواسط القرن السادس الميلاديين. وربَّما قارَبَ الصوابَ (جرجي زيدان) عندما حدَّد سنة وفاة أحيحة[21]. وكذلك نقل الدكتور (محمد عيد الخطروي) عن حواشي البخلاء أنّ أحيحة عاش بين سنتي 464 و 561 م[22]. وإذا كنّا قد توصَّلْنا ـ بأدِلَّة سُقْناها سابقاً ـ إلى ما يقارب التقديرات السابقة، فإننا نَأْنَف من تحديد سنة بعينها لولادة شاعر جاهلي قديم كأُحَيْحة، أو سنة محددة لوفاته، خاصّةً أننا، هنا، نجهل المدلول الزمني لكلمة «دهر»، التي وردت في عبارة ابن حجر (852 هـ) القائلة: مات أحيحة قبل أنْ يُولَدَ النبيُّ بدهر[23].

ومهما يكن من أمر، فإن الأحداث التي عاصرها الشاعر تشهد، إن صحّت، بقدمه، وتؤكد حياته ما بين حدّي الفترة التي ذكرناها، فيكون بذا معاصراً لجيل الشعراء الجاهليين القدامى، أمثال عمرو بن قميئة، ومالك بن العجلان، وعمرو بن امرىء القيس، وزهير بن جناب، والفند الزماني، ونموذجاً عنهم..

ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قارَبْنا أخبار أحيحة وفق الترتيب الآتي:

1" ـ أُحَيْحة وتُبَّع الأخير (أبو كرب بن حسان).

2" ـ أُحَيْحة وحَرْب سمير.

3" ـ أُحَيْحة وحرب كعب بن عمرو.

---

(20) الإصابة 1: 24.

(21) انظر تاريخ آداب اللغة العربية 1: 149.

(22) المدينة في العصر الجاهلي ـ الحياة الاجتماعية والسياسية 143.

(23) الإصابة 1: 24.

4"ـ خبره مع قَيْس بن زهير العبسي.

5"ـ صفاته وملامحه.

6"ـ شعره.

1"ـ أُحَيْحة وتُبَّع الأخير:

روى صاحب الأغاني وغيره[24]، أن تبعّاً الأخير، وهو أبو كرب حسان بن أسعد الحميري قدم من اليمن سائراً يريد المشرق، كما كانت التبابعة تفعل، فمرّ بالمدينة فخلّف بها ابناً له، ومضى حتى قدم الشام ثم سار من الشام حتى وصل إلى العراق، فنزل المشعّر، فقتل ابنه غيلةً في المدينة، فبلغه ذلك، فكرّ راجعاً، وقال:

يـا ذا مُعـاهِـرَ مـا تـزالُ تَـرُودُ رَمَـدٌ بـعيـنِـكَ عـادَهـا أم عُـودُ
مُنِعَ الـرُّقـادُ فما أُغمِّضُ سـاعـةً نَـبَطٌ بـيـثـربَ آمِـنـونَ قُـعُـودُ

ثم أقبل حتى دخل المدينة، وهو مُجْمِعٌ على إخرابها، وقَطْعِ نخيلها، واستئصال أهلها، فأرسل إلى أهلها ليأتوه، فأتاه الأزياد الثلاثة، وهم: زيد بن ضبيعة بن زيد بن عمرو بن عوف، وابن عمه زيد بن أمية بن زيد، وابن عمه زيد بن عبيد بن زيد، وأحيحة بن الجلاح، فقتل تبّعٌ الأزيادَ الثلاثة. أما أحيحة فضرب خباءه، وكانت معه قينة تدعى مُلَيْكَة، ثم إنه خدع تبعاً وفرّ من ليلته، فتبعه تُبَّع بخيله، وكان أحيحة قد تحصن في أطمه (الضحيان) فحاصرته جماعة تبّع ثلاثة أيام وليالٍ، وكان أحيحة يقاتلهم بالنهار، ويرميهم بالنبل والحجارة، ويرمي لهم ليلاً بالتمر... ولما مضت الأيام الثلاثة رجع أعداؤه فقالوا لتُبَّع: بعثتنا إلى رجلٍ يقاتلنا بالنهار، ويضيفنا بالليل، فتركه. وأَمَرَهُمْ أن يحرقوا نخله، وشبّت الحرب

(24) انظر الأغاني 15: 38 فما بعدها، والخزانة 3: 354ـ 356. وقارن بأخبار عبيد بن شرية في كتاب التيجان 463 فما بعدها.

بين أهل المدينة جميعاً، وتبّع، وتحصنوا بالآطام في حربهم هذه، وكانت عزّهم ومنعتهم.

وتمضي رواية أبي الفرج إلى القول: «قالوا: فبينا تبّع يريد إخراب المدينة وقتل المقاتلة وسَبْي الذراري وقطع الأموال أتاه حبران من اليهود، فقالا: أيها الملك انصرِفْ عن هذه البلدة فإنها محفوظة، وإنا نجد اسمها كثيراً في كتابنا، وأنّها مُهاجَرُ نبيٍّ من بني إسماعيل، اسمه أحمد يخرج من هذا الحرم نحو البيت الذي بمكّة، تكون داره وقراره، ويتبعه أكثر أهلها.

فأعجبه ما سمع منهما، وكفّ عن الذي أراد بالمدينة وأهلها، وصدّق الحبرين بما حدّثاه. وانصرف تبّع عما كان أراد بها، وكفّ عن حربهم، وآمنهم، حتى دخلوا عسكره، ودخل جنده المدينة»[25].

ويتابع الأصفهاني حديثه عن هذا التبّع فيذكر أنه هو الذي دلّتْهُ هذيلُ على البيت الحرام وأغرته به، فذهب إلى مكة، وبدلاً من الإساءة إلى البيت الحرام، حَلَقَ رأسه عنده وكساه الخصف، وأقام فيه ستة أيام ينحر في كل يوم ألفَ بعير. . . وقد تهوَّدَ وأهلَ اليمن بسبب ذينك الحبرين[26].

وتنطبق قصة التبّع التي ساقها أبو الفرج، على أعمال التبّع أسعد أبي كرب الحميري، وهو والد حسان، وليس ابنه كما جاء في مصادر أخرى[27]. وجاء في أخبار عبيد بن شرية أن التبّعَ الذي قدم المدينة، وسمع من حبرَيْها، وكسا البيت، هو أسعد أبو كرب الأوسط. وقد أورد له ابن شرية قصيدة تقع في (47) بيتاً، حوت الأبيات التي ذكرها أبو الفرج في الأغاني، والتي منها:

---

(25) الأغاني 15: 42. والخزانة 3: 356. وفي أخبار عبيد بن شرية 464 ذكر أن كعب بن عمرو هو الذي تنبأ بأن تكون يثرب مهاجر نبي يخرج من مكة. وهو من ولد إسماعيل بن إبراهيم.

(26) الأغاني 15: 45 ـ 46.

(27) انظر التيجان في ملوك حمير 305 ـ 306. وأخبار عبيد بن شريّة 461 فما بعدها، ونهاية الأرب 15: 296.

يـا ذا مُعـاهِـرَ مـا تـزالُ تـرودُ رَمَـدٌ بعينـكَ عـادَهـا أَمْ عُـودُ [28]

والقصيدة من الشعر المصنوع الذي أسقطه ابن سلاّم في خبر له ذكرناه قبل قليل، يقول فيه:

«. . . وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وجِمْيَر وتُبَّع»[29]. فشعر تُبَّع ساقط إذاً، ليس لأن ابن سلاّم فقط قال فيه رأيه، بل لأنه كان؛ بحق، من ذلك الشعر الذي كان يَتَقَوَّلُه القصاصون، أمثال عبيد بن شريّة وغيره. . . وعليه فإن مجيء هذا الشعر في ذاك الخبر يجعل من الخبر مثاراً للشبهة وموطناً للشك. أضف إلى ذلك أن قائله شخصية غامضة وغير معروفة بدقة.

ودليلنا على غموضها أننا لا نقع في قوائم أسماء ملوك حمير ممن ذكرتهم النقوش، وحكموا ما بين سنتَيْ 420 و525 م، على مَنْ يُدْعَى (أبـا كرب بن حسان بن أسعد الحميري) بل نعثر على اسم (حسان بن أسعد) الذي ملك ما بين سنتي 420 ـ 425 م حسبما يذكر (جرجي زيدان)[30]، أو وجد في سنتي 448 و 451 م ملكاً، حسبما تذكر قائمة (كريفيني)[31] المُعْتَمِدة على النقوش المكتشفة آنئذٍ.

وفي الوقت الذي تذكر الروايات العربية أن عَمْرُو بن أسعد قتل أخاه حساناً، وتولى الملك بعده[32]، نجد جرجي زيدان يذكر بعد حسانَ اسم (شرحبيل يعفر) ويحدد ملكه بين سنتي 425 ـ 455[33]، أما (جواد علي) فينقل عن المستشرق (جاءَه) اسم خليفة (حسان) على أنه (أبو كرب أسعد) ويحدد ملكه بين سنتي 425 و 430 م[34].

---

(28) الأغاني 15: 42. وأخبار عبيد بن شريّة 461.

(29) طبقات فحول الشعراء 1: 26.

(30) انظر العرب قبل الإسلام ص 128.

(31) انظر مقال (كريفيني) بالإيطالية (قصيدة قُدَم بن قادِم) في مجلة الدراسات الشرقية ـ روما 1918 ـ المجلد السابع. ص 293 ـ 363.

(32) انظر المحبر 367. والمختصر في أخبار البشر 1: 67.

(33) العرب قبل الإسلام 128.

(34) المفصل من تاريخ العرب قبل الإسلام 2: 577.

ومهما يكن من أمر، فإننا لكي نثق بلقاء ابن حسان بن أسعد الحميري بأُحَيْحَة، فإن هذا اللقاء ينبغي أن يكون قد تمَّ في أواخر القرن الخامس الميلادي، وهو التاريخ الذي يتوقع أن يكون فيه (أحيحة) رجلاً مكتمل الرجولة، وقادراً على مجابهة، أو مداورة، غازٍ آتٍ من الجنوب. . . وبعبارة أخرى، فإن كان ثمة (تُبَّعٌ) جاء إلى المدينة في زمن (أحيحة بن الجلاح) فإن هذا التبّع سواء أكان اسمه (أبا كرب بن حسان بن أسعد) الحميري، أم غيره، فالظن الغالب، أنه من التبابعة الذين وجدوا في أواخر القرن الخامس الميلادي أي ما بين سنتي 480 ـ 500 م أو بعد ذلك بقليل[35].

2" ـ أحيحة وحرب سمير:

وإذا كان خبر أُحَيْحة، وأبي كَرِب بن حسان الحميري يشوبه غموضٌ واضطراب، فإنَّ خبراً آخر يتصل بحروب شاعرنا، يعد أدخل في باب التاريخ والحقائق والوقائع، منه في باب الخرافة والتهويل والخيال، وهو مشاركة أحيحة في حرب سُمَيْر، وهي حرب ذكرت مراراً في كتب التاريخ والأدب ووقعتْ في مدينة يثرب، وهي أولى حروب الأوس والخزرج. وقد روى قصتها أبو الفرج فقال ما خلاصته:

إن رجلاً من غطفان جاء بفرسٍ وحلَّة إلى يثرب ليدفع بهما إلى أعزِّ أهلها، وكان لمالك بن العجلان حليفٌ يُدْعَى: كعباً الثعلبي، فقال: مالكُ بن العجلان، أعزُّ أهلِ يثرب. وقام رجل آخر، فقال: بل أُحَيْحةُ بن الجلاح، أعزُّ أهلِ يثرب.

(35) يذكر الدكتور محمد عيد الخطراوي أن أحيحة قاد الثورة ضد تُبَّع حوالي سنة 494 م، وهو على رأس الثلاثين، ولسنا ندري ما هي أدلته على هذا الجزم والقطع ـ انظر المدينة في العصر الجاهلي ـ الحياة الاجتماعية والسياسية ص 153. ومن أسباب ترددنا في القطع بتاريخ التبابعة الحميريين قول أبي الفداء: «قال صاحب تاريخ الأمم: ليس في جميع التواريخ أسقم من تاريخ ملوك حمير، لما يُذْكَر فيه من كثرة عدد سنيهم، مع قلة عدد ملوكهم، فإنهم يزعمون أن ملوكهم ستة وعشرون ملكاً، ملكوا نحو ألفَيْن وعشرين سنة» ـ المختصر في أخبار البشر 1: 68. وانظر نشوة الطرب 1: 163.

فدفع الرجل الغطفاني بالفرس والحلَّة إلى مالك، دون أحيحة، فغضب رجل من بني عمرو بن عوف، يُقالُ له سُمَيْر، من فِعْلةِ الغَطفَاني، ورصد كعباً، فقتله، فأُخْبِرَ مالك بن العجلان بذلك، فراح يطالب بثأر حليفه، فقال قوم من الأوس: الذي قتله بنو جَحْجَبَى، وقالت بنو جَحْجَبَى: بل هم بنو زيد. ثم طالب ابن العجلان بتسليم سُمَيْر، فأبت الأوس ذلك، وأرسلوا يعرضون الديّةَ، فقبل مالك على أن تكون ديةُ حليفِهِ كدية الصريح، وهي عشر من الإبل، فأبت الأوس إلا دفع دية الحليف، وهي النصف، وحكم بينهم عمرو بن امرىء القيس الشاعر، وهو جَدُّ عبد الله بن رواحة، فحكم لمالك بديّة الحليف، فأبى مالك ذلك. . . . وأرسل إلى بني عمرو يؤذنهم بالحرب، فالتقى الخزرج والأوس بفضاء، وكان بين بئر سالم وقباء، فاقتتلوا، فانتصفوا جميعاً، ثم التقوا مرة أخرى عند أُطُم بني قَيْنقاع، فحاربوا حتى حَجَزَ الليل بينهم. وكان الظفر يومئذٍ للأوس. وفي هذا اليوم قَتَلَ أحيحةُ نَضْلَةَ بن مالك بن العجلان. وكان أحيحة على رأس الأوس، ونضلة سيد بني سالم. . واستمرّت حرب سمير ـ كما يقول الرواة ـ عشرين سنة. وكانت لهم فيها وقائع وأيام لم تُحْفَظ. ثم حَكَّموا بينهم ثابت بن المنذر بن حرام أبا حسان بن ثابت، وقيل جدّه، فحكم بأنْ يُؤدي حليف مالك ديةَ الصريح، ثم تعود السُّنَّة بعده، كما كانت عليه من قبل، فرضي الفريقان[36].

وقد أَرَّخَ القدماء والمحدثون لهذه الحرب، فقال ابن الأثير: إن بين حرب سمير وحرب حاطب نحو مائة سنة، وأضاف إن حرب حاطب كانت آخرَ وقعةٍ بين الأوس والخزرج قبل الإسلام، إلَّا يوم بُعَاث[37].

فإذا عرفنا أن يوم بُعاث كان قبل الإسلام أيضاً، أي قبل سنة 622 م، بل قبل الهجرة بخمس سنين، على الأصح، حسب رواية السمهودي[38]، تأكَّدَ لدينا أنَّ

---

(36) انظر في حرب سمير: الأغاني 3: 18 ـ 26. والكامل لابن الأثير: 658 ـ 659. ووفاء الوفا 1: 152.
(37) الكامل في التاريخ 1: 671.
(38) وفاء الوفا للسمهودي 1: 152.

حربَ سُمَيْر كانت قبل حرب بُعاث بمائة سنة على الأقل، لأنَّها هي ذاتها وقعت قبل حرب حاطب بمائة سنة، وحرب حاطب قبل حرب بُعاث ـ كما تقدَّم. وبالتالي نخلص إلى أنّ شاعرنا شهد حرب سُمير في مطلع القرن السادس الميلادي في أغلب الظن.

وقد ارتأى بعض المعاصرين أن يحدّد سنة بعينها لحروب الأوس والخزرج، فنقل الدكتور محمد عيد الخطراوي أن (سيديو) يؤرخ لحروب الأوس والخزرج ما بين سنتي 467 و 615 ميلادية، أمّا الخطراوي نفسه فقرر أن حرب سُمير تمت سنة 504 م[39]. ويهمنا أن نشير هنا إلى أن شاعرنا، الذي كان زعيم الأوس في تلك الحرب، ينبغي أن يكون آنئذٍ قد دَلَفَ إلى سن الكهولة واكتمال الرجولة.

3"ـ حرب كعب بن عمرو:

وننتقل مع شاعرنا إلى خبر آخر يحكي معاصرته ومشاركته في حرب كعب بن عمرو. وهي حرب أخرى من حروب الأوس والخزرج، تلت حَرْبَ سُمَيْر. فقد جاء في الأغاني أنّ رجلاً من بني مازن يقال له كعب بن عمرو تزوّج امرأة من بني سالم بن عوف فكان يختلف إليها، فقعد له رهط من بني جَحْجَبَى بمرصد، وضربوه، حتى قتلوه. وفي شعر أحيحة ما يؤكد أنه هو الذي قتل كعباً، أو كان وراء قَتْلِه على الأقل. ولما بلغ مَقْتَلُ كَعْب، أخاه غاصم بن عمرو بن عوف، خرج ببني النجار، وخرج أحيحة بن الجلاح ببني جَحْجَبَى، فالتقوا بالرُّحابة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقَتَلَ أحيحةُ أخا عاصم، وكان يُكْنَى (أبا وحوحة)، وطلب عاصمٌ أحيحةَ، ففرّ أمامه، ولاحقه عاصمٌ حتّى البيوت، فأدركه عند باب داره، فزجَّهُ بالرمح، فحال الباب بينه وبين الرمح... ورجع عاصم، وراح يتحيَّنُ الفرصَ لقتْلِ غريمه، فطلب أحيحة ليلاً، ليقتله في داره، فبلغ ذلك أحيحة، وقيل له أيضاً إن

(39) انظر المدينة في العصر الجاهلي ـ الحياة الاجتماعية والسياسية 153 ـ 154.

عاصماً رُئِيَ البارحةَ عند الضَّحْيان، والغابة، وهي أرض لأحيحة، فقال أحيحة حينئذٍ:

نُبِّئْتُ أنَّكَ جِئْتَ تَسْرِي بَيْنَ دارِي والقُبابَهْ
أعُصَيمُ لا تَجْزَعْ فإنَّ الْحَرْبَ لَيْسَتْ بالدُّعابَهْ
فأنا الذي صَبَّحْتُكُمْ بالقومِ إذْ دَخلُوا الرُّحابَهْ
وقتلْتُ كَعْباً قبلَها وعلَوْتُ بالسَّيفِ الذُّؤابَهْ[40]

واستنجد أحيحة بقومه حين هاجمه عاصم، فأنجدوه، ولاحقوا عدوّه، فأعجزهم، وقرر أحيحة بعدئذٍ أن يكف أذى بني النجار، قوم عاصم، فَبَيَّتَ لهم الغارة، وكانت عنده زوجه سلمى النجارية، فأدركت خطة أحيحة ضد قومها، الذين ينتمي إليهم عاصم بن عمرو، فاحتالت، كما يزعم الرواة، على زوجها بأنْ أَجْبَرَتْهُ على السَّهَرِ حتَّى ساعة متأخرة من الليل، إذ إنها ربطت ابنها عمراً بخيط أوجَعَهُ، وبات يبكي، وهي تحمله، وبات أحيحة ساهراً، ولما نامَ الصبيُّ صاحت: وارأساه فصار أحيحة يعصب رأسها، حتَّى إذا لم يَبْقَ من الليل إلاّ أقلّه، قالت له: قُمْ، فَنَمْ. ثم أخذت حبلاً وأوثقَتْهُ برأس الحصن، وتدلَّتْ منه، ولهذا سُمِّيتْ بالمتدلِّيَة. وانطلقت إلى قومها، وأخبرتهم بنيّة أحيحة، فحذروا واستعدوا، ولما أراد أحيحة مهاجمتهم في الغداة، وَجَدَهم قد تأهَّبوا له، فانحاز عنهم، وعرف أن ذلك من عمل سلمى، فعاد إليها، وضربها، وكسر يدها، وطلَّقها. وكانت هذه الحادثة وراء نَظْمِ أحيحة لقصيدته (المُذَهَّبة) التي جعلها أبو زيد القرشي (القرن الرابع الهجري) بينَ القصائد السَّبْع المذهبات في مجموعته (جمهرة أشعار العرب)، وفيها يقول أحيحة:

صَحَوْتُ عن الصِّبا والدَّهْرُ غُولُ ونَفْسُ المَرْءِ آونةً قَتُولُ
إذا بانَتْ أُعَصِّبُها فنامَتْ عليَّ مَكانَها الحُمَّى الشَّمولُ

(40) انظر الأغاني 15:47. والكامل 1:660.

لعلَّ عِصابَها يَبْغيكَ حَرْباً ويـأتيهمْ بعَـوْرتِـكَ الـدَّليـلُ
وقـد أعْدَدْتُ للحـدثانِ عَقْـلاً لَوَ آنَّ المرءَ تَنْفَعُـهُ العُقُولُ[41]

وقد اختار الشيخ (عبد القادر المغربي) في محاضرة له، أن يسوق خبر سلمى وأحيحة في سياق من الرضا عما فعلته سلمى بزوجها. . .[42] ولا شك أن الظرف السياسي الذي كانت تمرُّ به سورية آنئذٍ، وهو ظرف الانتداب الفرنسي، كان وراء ذلك التوجيه لخبر سلمى وأحيحة.

ولسنا نعرف بالضبط الزمن الذي وقع فيه إفساد سلمى لخطة أحيحة ضد بني النجار، ولكننا نظن ظناً أنه كان قبل حرب داحس والغبراء بزمن، بدليل قصة وقعت مع الشاعر قبل هذه الحرب، تشهد أنه عاش حتى زمن وقوعها، وهي قصته مع قيس بن زهير العبسي.

4"ـ أحيحة وقيس بن زهير العبسي:

جاء في غير ما مصدر أن أحيحة كان يملك درعاً، ليس كمثلها درع، فجاءه قيس بن زهير بن جذيمة العبسي، وقال له: يا أبا عمرو نُبِّئْتُ أنَّ عندكَ درعاً ليس بيثرب درع مثلها، فإن كانت فضلاً فَبِعْنِيها، أوْ هَبْها لي. فقال أحيحة: يا أخا بني عبس، ليس مثلي يبيع السلاح، ولا يفضل عنه، ولولا أني أكْرَهُ أنْ أستَليمَ بني عامر لوهبتُها لك، ولحملتكَ على سوابقِ خيلي، ولكن اشترِها بابنٍ لبون، فإن البيعَ مُرْتَخص وغالٍ. وكان أحيحة يشير إلى علاقة له بخالد بن جعفر الذي امتدح أحيحة بقوله:

إذا ما أَرَدْتَ العِزَّ في آلِ يَثْرِبٍ فنـادِ بصـوتٍ يـا أحيحـة تُمْنَـعِ
رَأَيْنـا أبـا عمـرو أحيحـةَ، جـارُهُ يَبِيتُ قـريـرَ العينِ غيـرَ مُـرَوَّعِ

(41) الأغاني 15: 50. والكامل 1: 661.
(42) انظر محاضرات مجمع اللغة العربية بدمشق 1: 171.

ومَنْ يأتهِ مِنْ خـائِفٍ يَنْسَ خَوْفَـهُ ومَنْ يأته مِنْ جائعِ البطنِ يَشْبَعِ
فضـائلُ كـانَتْ للجُـلاحِ قـدِيمـةٌ وأكْرِمْ بفخْرٍ من خصـالِكَ أربـعِ

فقال قيس: يا أبا عمرو، ما عليكِ بعد هذا من لَوْم، فَلَهَا عنه، ثم عاوده، فساومه، فغضب أحيحة، وقال له: بِت عندي، فبات عنده، فلما شربا تغنّى أحيحةُ، وقيس يسمع:

ألا يـا قيسُ لا تَسُـمَنَّ دِرْعـي فمـا مِثْلي يُسـاوَمُ بـالـدُّرُوعِ

في خمسة أبيات[43].

وفي حين سكت المفضَّل بن سَلَمَة (291 هـ)، الذي روى هذا الخبر، عن نتيجة المساومة، ذكر أبو الفرج أن قيساً أمسك عن المساومة[44]. أما البطليوسي فذكر في (شروح سقط الزند) أن قيساً اشترى الدرع بابن لبون، وكانت هذه الدرع تسمى الموشّاة، وقال بعضهم ذات المواشي[45]. وكذلك قال الخوارزمي: إن الدرعَ بِيعتْ بابن لبون[46]. وهناك من يجعل تنازعَ الربيع بن زياد مع قيس بن زهير على هذه الدرع، هو سبب حرب عبس وذبيان؛ فقد قال التبريزي: «أحيحة بن الجلاح الأوسي كانت له الدرع التي وقعت بين عبس وذبيان الحرب لأجلها، واشتراها منه قيس بن زهير ورغب فيها الربيع بن زياد، فأخذها من قيس، فاحتربت القبيلتان»[47] ونلتقي في (شرح القصيدة الدامغة) للهمداني بخبرٍ يفيد أنّ عمرو بن حسان، وهو تبّع الأصغر، هو الذي وهب هذه الدرع لجدِّ أُحَيْحة[48]. ويذكِّرُنا خبر (الهمداني) هذا باسم التبّع الذي قدم إلى المدينة. فهل كان ثمة تبّعان، أحدهما

(43) انظر الفاخر 162 ـ 163.
(44) انظر الأغاني 15: 52.
(45) شروح سقط الزند 1488.
(46) شروح سقط الزند 1489.
(47) المصدر السابق 1487.
(48) انظر شرح القصيدة الدامغة 430.

وهب جدَّ أحيحةَ درعاً، والآخر حارب أحيحة في أواخر القرن الخامس الميلادي؟ أم أن خبر الهمداني كلّه لا أساس له من الصحة، فهو داخل في باب اصطناع المفاخر اليمنية واختلاقها لتكون بإزاء مفاخر أهل الشمال ومآثرهم بعد الإسلام؟.

وعلى الرغم من أننا نستنتج من خلال تاريخ ابن الأثير وأبي الفداء، وتعاقب الأخبار فيهما، أن خلاف قيس بن زهير، والزياد بن ربيع، على الدرع المشتراة من أحيحة، قد وقع قبل حرب داحس والغبراء[49]، فإننا لا نستطيع الجزم بسنة محددة لتأريخ هذه الحادثة. بيد أن في حوزتنا ما يشهد لبقاء أحيحة حيّاً حتى ما يقرب من نشوب حرب داحس والغبراء، التي أرخ لها بسنة 568 م[50]. فقد قال ابن لأثير: واتفق جماعة من المدينة هم: عمرو بن الإطنابة، ومالك بن العجلان، وأحيحة بن الجلاح، وقيس بن الخطيم، وغيرهم، على أن يسعوا بالصلح بين الحيين (أي عبس وذبيان)، فلم ينجحوا[51].

وبعد هذا الخبر لم نعد نقرأ شيئاً عن أحيحة يدل على وجوده بعد مولد الرسول ﷺ، الأمر الذي يشير إلى أنه توفي، على الأرجح، قبل سنة 570 م، كما يفهم من خبر ابن حجر المذكور آنفاً، بزمنٍ ربما يكون متقدماً أيضاً على عام 568 م، الذي قد لا يكون هو الآخر، عام شبوب حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان. فقد أصبت خبراً يقول: «روى الأصمعي عن أبي طفيلة قال: حدثني من رأى مُساوِرَ بن هند أنَّه ولد في حرب داحس والغبراء قبل الإسلام بخمسين عاماً»[52]. فإذا كان الرسول ﷺ قد بُعثَ سنة 610 م فإن ما قبلها بخمسين عام هو سنة 560 م، والله أعلم.

---

(49) انظر الكامل 1:547. والمختصر في أخبار البشر 1:79.

(50) انظر النابغة الذبياني لعمر الدسوقي 106. وقد اعتمد الدسوقي في تأريخ هذه الحرب على (كوسان دي برسفال) في كتابه مقال في تاريخ العرب قبل الإسلام الذي لم أتمكّن من العودة إليه.

(51) الكامل 1:576.

(52) الإصابة 6:171.

5"ـ صفات أحيحة وملامحه:

كانَ أُحَيْحَةُ سيِّدَ الأوس في الجاهلية، وتميَّزَ بصفات كثيرة ذكَرَتها كُتُبُ الأدب والتاريخ واللغة والأمثال؛ فقد نعته صاحب الأغاني بأنه كان كثير الصواب حتى لقد اعتقد الناس آنئذٍ أن تابعاً من الجن يكلِّمه، لأنه كان لا يظنُّ الشيءَ، فيُخبر به قومه، إلاّ كانَ كما قال[53]. وفي شعره حِكَمٌ تشهد بحكمته وحنكته، فهو يقول:

اسْتَغْنِ عن كُلِّ ذِي قُرْبَى وذِي رَحِمٍ ... إنَّ الغنيَّ منِ اسْتَغْنَى عنِ النَّاسِ
والبسْ عدوَّكَ في رفْقٍ وفي دعةٍ ... لباسَ ذي إربةٍ للدَّهْرِ لَبَّاسِ
ولا تغرَّنَّكَ أضْغانٌ مزمَّلَةٌ ... قَدْ يُضْرَبُ الدُّبُرُ الدَّامِي بأَحْلاسِ[54]

وهذه حكم شعرية تتواكب وموقفه من جنود تُبَّع، الذين كان يحاربهم في النهار، ويرمي إليهم التمر بالليل، حتى لكأنها جاءت لتفسر سياسته التي اصطنعها آنئذٍ، والتي عرضنا لها في حديثنا عن حربه مع تبّع.

وقد ذكر من صفات أحيحة أنه رجل صَنَعٌ للمال يبيع بيعَ الرِّبا بالمدينة، حتى كاد يحيط بأموالهم، فكأنَّ عدوى من طِباع اليهود الذين كان بين ظهرانيهم قد أصابته..!

وها هوذا يؤكِّد في شعره رغبته في الغنى وتعلُّقه بالمال، وتكالبه عليه:

استغنِ أو مُتْ، ولايغررْكَ ذو نَشَبٍ ... من ابنِ عمٍّ، ولا عَمٍّ، ولا خالِ
واجمَعْ ولا تَحْقِرَنْ شَيْئاً تُجَمِّعُهُ ... ولا تُضيِّعهُ يوماً على حالِ
كلُّ النِّداءِ إذا ناديتُ يخذُلُني ... إلاّ نِدايَ إذا نادَيْتُ يا مالِي[55]

(53) الأغاني 15:39. والخزانة 3:355.
(54) البيان والتبيين 2:36.
(55) الجليس الصالح الكافي 1:478ـ 479.

ولم يَدْعُ أحيحة إلى كسب المال والغِنى فحسب، بل حاز هذا المال، وظفر بالغنى . . . فمما عُرِف عنه أنه امتلك حقول النخيل، وقام على إصلاحها، واتقن تأبير النخل، وحرص على شرائه، رغم لوم قومه له على ذلك، فهو القائل:

لَقَـدْ لاَمَنِي في اشْتِـراءِ النَّخِيـ ـلِ قَـوْمي فكـلُّهُـمْ يَـعْـذِلُ
هِيَ الظِّلُّ في الصَّيْفِ حَقُّ الظَّلِيـ ـلِ ، والمَنْـظَرُ الأَحْسَنِ الأَجْمَـلُ
وتصبـحُ حَيْثُ يَـبِيـتُ الـرِّعـاءُ وإنْ ضَـيَّعُـوهـا وإنْ أَهْـمَلُوا[56]

وفي البيت الأخير نلاحظ أن شاعرنا هنا يفضل اقتناء النخيل على اقتناء الإبل، ويقارن بين الأمرين، فيرى أن النخل خيرٌ من الإبل، فقد قال ابن منظور في هذا البيت: «إنما عنى بالرِّعاء حَفَظَةَ النخلِ ، لأنه إنّما هو في صِفَةِ النخيل، يقول: تصبح النخل في أماكنها لا تنتشر كما تنتشر الإبل المهملة»[57] ولعل حياة أحيحة في المدينة، وبعده عن البادية، كانا وراء نظرته الاقتصادية هذه، ووراء جنوحه إلى الإشادةِ بمظهر من مظاهر الحياة الزراعية التي كان يحياها أهل يثرب، على عكس ما هي الحال في موقف الناس من معطيات الحياة البدوية، التي كان قوامها وعمادها الإبل والشاء في البادية.

ومما شُهِرَ به شاعرنا بناؤه للآطام، وهي حصونهم وموطن عزّهم، ومن آطامه اثنان هما: (المستظل)، وهو الذي تحصن فيه يوم حارب تبّعاً، أبا كرب الحميري . . . (والضحيان)، وهو في العصبة من أرضه، التي يقال لها الغابة[58]. وقد ذكر ابن حبيب (245 هـ) أن (سِنمَّار) هو الذي بناه لأحيحة، وكان يعرف منه حجراً لو زُعْزِعَ، لسقط الحصنُ بأسره، ولما دلّ عليه أحيحة، رماه إلى الأسفل،

(56) الأزمنة والأمكنة 2: 335.
(57) اللسان (رعى).
(58) انظر الأغاني 15: 47. والخزانة 3: 358.

فمات[59]! وإن صدق هذا الخبر دلّ على لؤم وعقوق كبيرين انطوت عليهما نَفْسُ أحيحة...

وإذا كان هناكَ سحابةٌ من الشكّ تلفُّ هذا الخبر[60]، فإننا ربما نصدق ما ألصق بشاعرنا من صفة البُخْلِ وشدّة الحرص. فقد قال المبرد (286 هـ) مثلاً: «ويُرْوَى أن أحيحة بن الجلاح الأنصاري، وكان يُبَخَّل، كان إذا هبَّت الصبا طَلَع من أطمه، فنظر إلى ناحية هبوبها، ثم يقول لها: هبّي هبوبك فقد أعددت لكِ ثلاثمائة وستين صاعاً من العجوة أدفع إلى الوليد منها خمس تمرات، فيردُّ علي منها ثلاثاً لصلابتها، بعد جهد ما يلوك منها اثنتين»[61].

ورُوِيَ عن حرصه أن شخصاً رآه وهو يلقط تمرةً، فعاتبه، فقال: «التَّمْرةُ إلى التمرةِ تَمْرٌ»[62]. ثم قال:

«استغنِ أو مُتْ ولا يغررْكَ ذو نَشَبٍ ... مِنِ ابنِ عَمٍّ ولا عَمٍّ ولا خالِ
إنّي مُقيمٌ على الزَّوْراءِ أعمرُها ... إنَّ الحبيبَ إلى الإخوانِ ذو المالِ
كلُّ النِّداءِ إذا نادَيْتُ يَخْذُلُني ... إلَّا نِدايَ إذا نادَيْتُ يا مالي

فاشتهر بالبخل لذلك. وقالت له الأوس: فَضَحْتَنا ببُخْلِكَ، كلما أردنا أن نقدّمكَ قالوا: بخيلٌ لا يصلح للتقديم»[63].

والحقُّ أنه لا يصح التسليم بكل ما جاء في هذا الخبر، فنحن نقرأ في

(59) انظر المنمق 339 ـ 340.

(60) نشك في هذا الخبر لأن (سنمار) نفسه هو الذي يُرْوَى أنه بنى الخورنق للنعمان بن الشقيقة، وهو النعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي بن نصر، فكان جزاؤه ما هو معروف... والنعمان بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي من رجال القرن الرابع الميلادي، لأن أباه هو الذي ذكرت وفاته سنة 328 م في نقش النمّارة ـ انظر الأغاني 2: 144.

(61) الكامل في اللغة 3: 61.

(62) هذا مثل، ومما يُعْزَى إلى أحيحة قوله: «الذّود إلى الذّود إبل» ـ انظر الفرق بين المذكر والمؤنث ص 72. وفصل المقال 282.

(63) نشوة الطرب 1: 190 ـ 191.

مصادر أخرى أن أحيحة كان فارس الأوس وشاعرهم وجوادهم[64]. وهي صفات سنعالجها ها هنا. فأما أن يكون فارسهم، فهذا ما وقع إثباته فيما تقدم، فقد شارك أحيحة في حرب سُمير، وقتل نَضْلةَ بن مالك بن العجلان، وأسهم في حرب كعب بن عمرو، وقتل أخا عاصم بن عمرو، المدعو (أبا وحوحة). وأما كونه شاعرهم فسنعرض لشعره بعد قليل. ولكنَّ نعتَهُ بأنه جواد بني الأوس، فهذا هو المُحَيِّر، فكيف يكون جواداً من مرّت بنا أخبارٌ عن حبّه للمال، وحِرْصه على تجميعِهِ، وتفانيه في تحصيل الغنى، وبخلِهِ، ورِباه؟.

ومما يزيد الطين بلّة أن (ابن قدامة المقدسي) (620 هـ) وهو صاحب الخبر السابق، قد روى منافرةً مزعومة وقعتْ بين حفيد أحيحة، محمد بن عقبة، والزبرقان بن بدر أمام النابغة الذبياني، فقال فيها الحفيد عن جدّه:

«وأما أحيحةُ فرأسٌ معبود، وخلْقٌ محسود، قاتل...[65] وعلم الجود، وواهب ذات المواشي لقيس بن زهير ثمنها ثمانمائة ناقة، وضمن لكل مَنْ أتاه، إذا عقر ناقته على باب داره، خلفها، واحتفظ على عياله، فأحيحة أفضل من بدر»[66].

والمبالغة والتهويل واضحان في هذه المنافرة المُدَّعاة، فثمن الدرع الموشاة لا يعقل أن يكون ثمانمائة ناقة. وهذا التزيُّد والتكثُّر ينسحب على كلِّ ما ورد في هذه المنافرة من صفات لأحيحة، الأمر الذي يُثير شُبْهةً في وقوع المناظرة بالذات، وفي مضمون ما جاء فيها أيضاً.

ويقتضي الإنصاف أن نشير إلى أن أحيحة كانت لـه شخصية متعـددة الجوانب، فلعلّه، وإن كان بخيلاً، لم يكن ليأتي برذائل أو عيوب تودي بسمعته،

---

(64) انظر الاستبصار ص 307.

(65) كلمة ساقطة في أصل المخطوط كما قال المحقق.

(66) الاستبصار 314.

ولا سيما أنه كان زعيماً من زعماء الأوس دون ريب، وللزعامة شروطها وحقوقها. ولهذا نجده يقسم بالبيت الحرام أنه لا يعوّل على خطة دنية، يقول:

إنّي والمِشْعَرِ الحرامِ وما حَجَّتْ قريشٌ لَهُ وما شَعَرُوا
لا آخذُ الخطَّةَ الدنيَّةَ ما دامَ يُرَى مِنْ تضارعٍ حَجَرُ[67]

ولكننا لا نستطيع استبيانَ ما المرادُ بالخُطَّةِ الدنيَّةِ، بيدَ أن هذين البيتين يكشفان لنا عن تبجيل وتكريم يصدران عن أحيحة إزاء البيت الحرام، الذي كان موطن تقديس وتقدير عند العرب قاطبة. ومن المؤسف أن نفتقد أيضاً ما يعيننا على تحديد عقيدة الشاعر الروحية، أو مفاهيمه الدينية، التي ربما كان للتقليد اليهودي في يثرب تأثير فيها.

6" ـ شعر أحيحة:

إن الأدلة الكثيرة التي قدمناها ربما كشفت لنا بوضوح أن أحيحة كان شاعراً من الشعراء الجاهليين الأوائل الذين قُصّد القصيد في عهدهم.

ويبدو أنه كان لأحيحة ديوان من الشعر قام بصنعه أحد علمائنا القدامى، فقد ذكر ابن خير الإشبيلي (575 هـ) شعرَهُ بين الأشعار التي رحلت إلى الأندلس، فكان مما ذكره أبو مروان بن سراج مما رواه عن أبي سهل الحرّاني[68]. ولكن لم يصل إلينا اسمُ جامعِ هذا الشعر أو صانعه، وكذلك لم تصل أية نسخة من نسخ المخطوطات التي أخذت عنه، فهو حتى الآن في عداد المفقود، أو المجهول، من دواوين الشعراء الجاهليين... ولهذا قُمْنا بجمع شعره ودراسة أخباره. وقد سبقنا إلى جمع شعر أحيحة الدكتور (حسن محمد باجودة)، ونشره عام 1979 في منشورات نادي الطائف الأدبي بالسعودية. ولكن عمل الدكتور (باجودة) لم يثننا

---

(67) معجم البلدان: (تضارع).
(68) انظر فهرسة ابن خير 397.

عن صنع هذا الشعر من جديد، وذلك لما انطوى عليه العمل السابق من ملاحظات وثغرات، منها مثلاً أنّه لم يضبط شعر أحيحة الضبط اللائق، وكان تخريجه للأبيات يشكو من نقص كبير، ومراجعه لم تَزِدْ على (37) مرجعاً، وأبيات أحيحة عنده لم تبلغ أكثر من (103) أبيات.

أما نحن فقد ضَبَطْنا فيه شعر الشاعر ضبطاً كاملاً، وتوسّعنا في تخريجه قَدْرَ المستطاع، ورصدنا رواياته المختلفة، وبلغت مصادرنا في دراسة حياة الشاعر، وصنع شعره، ثلاثة أضعاف مصادر الدكتور باجودة، مما مكّننا من إضافة (20) عشرين بيتاً إلى ما تَمَّ العثور عليه في المحاولة التي سبقت محاولتنا. وقد فَصَلْنا ما أجمع عليه الرواة، تقريباً، أنه لأحيحة، عَمَّا نُسِبَ إلى شاعرنا وإلى غيره من الشعراء، وشرحنا غريب شعره، وعرضنا للكثير من مشكلاته اللغوية والنحوية والعروضية، وهي أمور افتقر لها الصنيع السابق لهذا الشعر.

ورغم ذلك فنحن نقدّر أن كثيراً من شعر أحيحة قد ضاع في رحلته من القرن الخامس الميلادي حتى هذا القرن، بدليل أن أبياتاً قليلة من قصائد طويلة هي وحدها التي وصلت إلينا، وضاعت بقية القصيدة، فأبو الفرج الأصفهاني مثلاً يقول بعد هذين البيتين، اللذين قالهما أحيحة في زوجه سلمى:

أَخْلَقَ الرَّبْعُ من سُعادَ فأَمْسَى رَبْعُـهُ مُخْلِقاً كـدَرْسِ الْمَـلاةِ
بـالِياً بَعْـدَ حاضـرٍ ذِي أَنِيسٍ مِنْ سُلَيْمَى إذ تَغْتَدِي كالْمَهاةِ

«وهي قصيدةٌ طويلةٌ، يُقال إنَّ في هذين البيتين منها غناء»[69].

وقد عثرنا في معاجم اللغة، كاللسان وغيره، على أبيات مفردات، لا نظنّ إلا أنها أبعاض قصائد مندثرة، لم يبلغنا منها إلا هذه الشذرات... فورود أبيات لشاعرنا في أكثر من خمس وعشرين مادة في اللسان، يصعب أن يقع دون أن يكون

(69) الأغاني 15: 51.

صاحب اللسان، أو من نقل عنهم، قد عادوا إلى ديوان لأحيحة، بقي سالماً إلى القرن الثامن الهجري، أو إلى زمن قريب منه. . .

ومهما يكن من أمر، فالديوان لم يصل إلينا، وقد تَمَكَّنا ـ كما ذكرنا ـ من جمع (123) بيتاً لأحيحة، توزَّعتْ على إحدى وعشرين قصيدة ومقطعة، من بينها ست قصائد. أما الأبيات التي نازع أحيحةَ فيها شعراءُ آخرون، فقد بلغت (14) بيتاً.

المصادر والمراجع

(أ) الكتب:

1 ـ أخبار عبيد بن شرية في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها (ضمن كتاب التيجان في ملوك حِمْيَر)، ط 2 صنعاء 1979.

2 ـ الأزمنة والأمكنة، للمرزوقي، حيدر آباد الدكن 1322 هـ.

3 ـ الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، لموفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي، تحقيق علي نويهض، بيروت 1971.

4 ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، مصر 1280 هـ.

5 ـ الاشتقاق، لابن دريد، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1958 م.

6 ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، مصر 1332 هـ.

7 ـ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، مصورة دار الكتب المصرية، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

8 ـ أنباء نُجَباء الأبناء، لابن ظفر الصقلي، بيروت 1910.

9 ـ أنساب الأشراف للبلاذري، تحقيق محمد حميد الله، القاهرة 1956.

10 ـ البداية والنهاية، لابن كثير، مصر 1351 هـ/ 1932 م.

11 ـ البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة 1949.

12 ـ تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان، بيروت.

13 ـ تاريخ الطبري، (تاريخ الأمم والملوك)، للطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر 1968.

14 ـ التيجان في ملوك حِمْيَر، لوهب بن منبه، ط 2 ـ صنعاء 1979.

15 ـ الجليس الصالح الكافي والأنيس الصالح الشافي، للنهرواني، تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت 1981 ـ 1982.

16 ـ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، 1962.

17 ـ جمهرة النسب، لابن الكلبي، تحقيق عبد الستار فرّاج، الكويت، 1983.

18 ـ خزانة الأدب، للبغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، الرياض والقاهرة 1979 فما بعدها.

19 ـ الروض الأنف، للسهيلي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، بيروت 1978.

20 ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وصحبه، القاهرة ط 2 ـ 1955.

21 ـ شرح القصيدة الدامغة، للهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، القاهرة 1978.

22 ـ شروح سقط الزند، للتبريزي، والبطليوسي، والخوارزمي، تحقيق لجنة إحياء آثار أبي العلاء، دار الكتب المصرية 1945.

23 ـ طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي، تحقيق محمود شاكر، ط2 ـ القاهرة 1974.

24 ـ العرب على حدود بيزنطة وإيران، لنينا فكتور فنابيغوليفسكيا، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت 1985.

25 ـ العرب قبل الإسلام، لجرجي زيدان، بيروت، د. ت.

26 ـ عيون الأثر لابن سيد الناس، القاهرة 1356 هـ.

27 ـ الفاخر، للمفضّل بن سلمة، تحقيق عبد العليم الطحاوي، القاهرة 1974.

28 ـ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، للبكري، تحقيق إحسان عباس، وقطامش، بيروت 1971.

29 ـ فهرسة ابن خير الإشبيلي، طبع بيروت.

30 ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير، بيروت 1965.

31 ـ كُنَى الشعراء، لابن حبيب (ضمن نوادر المخطوطات)، تحقيق هارون القاهرة ط 2 ـ 1973.

32 ـ محاضرات مجمع اللغة العربية، دمشق.

33 ـ المحبر، لابن حبيب، تحقيق ايلزة ليختن شتيتر ـ حيدر آباد 1942.

34 ـ المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء، مصر، د. ت.

35 ـ المدينة في العصر الجاهلي، (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية) لمحمد عيد الخطراوي دمشق، بيروت ط 2 ـ 1984.

36 ـ المعارف، لابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة 1960.

37 ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، بيروت، دار صادر 1404 هـ، 1984 م.

38 ـ المُفَصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، بيروت ط 2 ـ 1978.

39 ـ المنمَّق في أخبار قريش، لابن حبيب، تحقيق خورشيد فاروق، حيدر آباد 1384 هـ/ 1964 م.

40 ـ النابغة الذبياني، لعمر الدسوقي، القاهرة، ط 6 ـ 1976.

41 ـ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق نصرت عبد الرحمن، عمان، 1982.

42 ـ نهاية الأرب، للنويري، ط دار الكتب المصرية 1924.

43 ـ وفاء الوفا، للسمهودي، مصر 1326 هـ.

(ب) الدوريات:

1 ـ مجلة الدراسات الشرقية، المجلد السابع، روما 1918.

2 ـ مجلة العرب، ربيع الأول 1351، مايو 1971، ج 9، الرياض 1351 هـ، 1971 م.